# كُلْثومُ بنُ عَمْرٍو العَتّابيُّ،
# الشّاعِرُ العَبّاسيُّ الحَلَبيُّ، الذي رَحَلَ إِلَى أقاصي إيرانَ، ليَتَثَقَّفَ بِثقافةِ الفُرْسِ ويُجَدِّدَ في شِعْرِه ونَثْرِه

أ.د. عيسى علي العاكوب*

**إطلالةٌ عَلَى البَحْث:**

يَرْمي هذا البَحْثُ إِلَى تقديمِ مِثالٍ حَيٍّ لِفِكْرةِ أَنّ «شَهْوةَ تقديمِ العِلْمِ الأَفْضَلِ» قد تبلُغُ عِنْدَ بعضِ الأفرادِ مِقدارًا يَدْفعُهُم بِقُوّةٍ إِلَى البَحْثِ عن مَصادِرَ لِلزّادِ المَعْرِفيّ تَقَعُ خارجَ نِطاقِ لُغتِهم القَوْميّة. وفي هذه المَنْدُوحةِ، نُقدِّمُ لِلْقارئ الكريمِ قِصّةً تستحقُّ بِجَدارةٍ أَن تُرْوَى لِأَجْيالِ العَرَبِ والإيرانيّينَ مَعًا؛ وهي قِصّةُ الشّاعِرِ العَرَبيّ العَبّاسيّ كُلْثُومِ بنِ عَمْرٍو العَتّابيّ، الذي حَصّلَ مِن ثقافةِ العَرَبِ وأَدَبِهم ما يَجْعَلُه مِن الطِّرازِ الأَوّلِ في نَظْمِ القَريضِ العَرَبيّ والتّأليفِ الأَدَبيّ بِالعَرَبيّة، ثُمّ أَتَى عَلَيْهِ حِينٌ مِن الدَّهْرِ اسْتَشْعَرَ في إِبّانِهِ أَنّ في ثَقافةِ الإيرانيّينَ ما يَسْتحقُّ أَن يُطْلَبَ، ويُبْدَعَ بِلُغةِ العَرَبِ البَليغةِ وبَيانِهم السّاحِر، فذَهَبَ إِلَى مَدِينة «مَرْو» في أَقْصَى الشّرقِ الإيرانيّ القديمِ، واطّلَعَ بِلُغةِ الفُرْسِ عَلَى ما سَمّاهُ كُتُبَ العَجَم، التي كانَتْ مَدِينةُ «مَرْو» العالَميّةُ تَزْخَرُ بِها في دُورِ كُتُبِها الكثيرة. ويَبْدُو مِن جُمْلةٍ مِن القَرائنِ أَنّ «مَعانِيَ» العَجَمِ التي أُعْجِبَ بِها الشّاعِرُ غايةَ الإعْجَابِ قد استبدَّتْ بِذائقتِه الأدبيّةِ الرّائقةِ الرّائعةِ، فتَرَكَتْ مَياسِمَها في شِعْرِهِ ونَثْرِه.

---

* عُضْوُ مَجْمَعِ اللّغةِ العربيّةِ في دمشق، أستاذُ البلاغةِ والنّقدِ في جامعةِ حَلَب، سوريا. mla@net.sy

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٢/٣/٩ تاريخ القبول: ٢٠٢٢/٤/١٥

ويَسْتَدْعِينا تَقْدِيمُ الصُّورةِ كامِلَةً أَن نَقِفَ في تضاعيفِ مُناقَشَةِ هذه الفِكْرةِ عِنْدَ النِّقاطِ الآتية:

١- كُلْثُومٌ العَتّابيُّ: الهُوِيّةُ والنَّسَبُ والثّقافةُ والطّباعُ.

٢- بَلَدُ النَّشْأةِ: رَأْس عَيْنٍ وقِنَّسْرينُ والرّقّةُ.

٣- العَتّابيُّ البَليغُ اللَّسِنُ.

٤- الرِّعايةُ الفارسيّةُ لِلْعَتّابيّ.

٥- مَرْوُ ومَكْتَباتُها واطّلاعُ العَتّابيّ عَلَى كُتُبِها الفارسيّة.

٦- رُؤيةٌ جديرةٌ بالاهتمامِ عِنْدَ العَتّابيّ: لُغةُ العَرَبِ تَغْنَى بِمَعاني العَجَم (الفُرْس).

٧- آثارٌ لِمعاني الفُرْسِ في شِعْرِ العَتّابيّ ونَثْرِه.

٨- المُسْتَخْلَصُ الأخيرُ أو قَصيرةٌ مِن طَويلةٍ.

**الكلمات المفتاحيّة:** كُلْثومُ بنُ عَمْرٍو العَتّابيُّ، ثقافةُ الفُرْس، مَرْوُ ومَكْتباتُها، لغةُ العربِ تَغْنى بمعاني العَجَم...

**١- كُلْثُومٌ العَتّابيُّ: الهُوِيّةُ والنَّسَبُ والثّقافةُ والطِّباعُ:**

يُفِيدُ العَرْضُ لِهذِه الجُزئيّةِ في تكوينِ تَصَوُّرٍ لِهذِه الشّخصيّةِ ونَشاطِها الفِكْريّ والإبْداعيّ. يقولُ ياقُوتُ الحَمَويُّ في شَأنِ نَسَبِه: «هُوَ كُلْثُومُ بنُ عَمْرِو بنِ أَيّوبَ بنِ عُبَيْدِ بنِ جُيَيْشِ بنِ أَوْسِ بنِ مَسْعودِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو الشّاعِرِ بنِ كُلْثُومِ بنِ مالِكِ بنِ عَتّاب...» (ياقوت الحمَويّ، مُعْجَمُ الأُدباء، [لا تا.]، ج١٧، ص٢٧). فَهُوَ تَبَعًا لِذلكَ عَرَبيٌّ صَرِيحٌ مِن تَغْلِبَ بنِ وائل مِن رَبيعة. جَدُّه السّابعُ عَمْرُو بنُ كُلْثُوم، الشّاعِرُ الأَبِيُّ المُفْتَنُّ صاحِبُ المُعَلّقةِ المَشهُورةِ، التي يَظْهَرُ أَنّ قبيلتَه تَغْلِبَ تطاوَلَتْ بِها وفاخَرَتْ بَيْنَ العَرَب، حتّى قالَ هاجٍ لِتَغْلِبَ:

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عن كُلِّ مَكْرُمةٍ ... قَصِيدةٌ قالَها عَمْرُو بنُ كُلْثُومِ

**كُنْيةُ العَتّابيّ:** أَبُو عَمْرٍو. ويَشِي مضمونُ البيتِ السّابقِ بِانْتِماءِ العَتّابيّ إِلَى قَبيلةٍ كانَتْ تُفاخِرُ بِالفَنِّ الشِّعْريّ والبَيانِ الرّفيع.

ويَبْدُو أنّ العَتّابيَّ قد حَصَّلَ مِن عَناصِرِ الثّقافةِ العربيّةِ ما جَعَلَهُ مُبْدِعًا كبيرًا في فُنُونِ أَدَبِ زَمانِه حتّى قالَ عنهُ المَسْعُودِيُّ: «كانَ مِن العِلْمِ والقِراءةِ والأَدَبِ والمَعْرِفةِ والتّرسُّلِ وحُسْنِ النَّظْمِ لِلْكلامِ وكَثْرةِ الحِفْظِ وحُسْنِ الإشارةِ وفَصاحةِ اللِّسانِ وبَراعةِ البَيانِ ومُلُوكيّةِ المُجالَسةِ وبَراعةِ المُكاتَبَةِ، وحَلاوةِ المُخاطَبةِ وجودةِ الحِفْظِ وصِحّةِ القَريحةِ عَلَى ما لَمْ يَكُنْ كثيرٌ مِن النّاسِ في عَصْرِهِ مِثْلَه» (ناصِر حَلاوي، ١٩٦٩م، العددان ٢، ٣، ص٣٧٠، نقلًا عن مروج الذّهب لِلْمَسْعُوديّ ١٥/٤). وقالَ عنهُ ابنُ خَلِّكان: «كانَ شاعِرًا خَطيبًا بَليغًا مُجيدًا... ولَه رَسائلُ مُسْتَحْسَنةٌ... مُتَرَسِّلٌ بَليغٌ مَطْبُوعٌ مُتصَرِّفٌ في فُنُونٍ مِن الشِّعْر، مُقدَّمٌ في الخَطابةِ والرِّوايةِ، حَسَنُ العارضةِ والبَديهةِ» (ابنُ خَلِّكان، ١٩٧١م، ج٤ ص١٢٢). وبَرَزَ العَتّابيُّ في التّأليف والتّصنيف. والتّأليفُ مِن دلائلِ الرّغبةِ في تقديمِ الخِبْرة وبَيانِ مِقْدارِ العِلْمِ والفَضْل. وفي هذا قالَ عنهُ مُحَمَّدُ بنُ إسحاق النّديم: «وكانَ العَتّابيُّ أَديبًا مُصَنِّفًا، ولَهُ مِن الكُتُب: كِتابُ المَنْطِقِ، كتابُ الآداب، كتابُ فُنُونِ الحِكَم...» (ياقوت الحمَويّ، مُعْجَمُ الأُدباء، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، ج١٧ ص٢٧-٢٨).

وكانَ مِن طِباعِهِ أنّهُ «يَتجنّبُ غِشْيانَ السُّلْطانِ قَناعةً وصِيانةً وتنزُّهًا وتَعَزُّزًا، وكانَ يَلْبَسُ الصّوفَ ويُظْهِرُ الزُّهْدَ» (ابنُ خَلِّكان، ١٩٧١م، ج٤ ص١٢٢). ويَبْدُو أنّ سُلُوكَه جُمْلةً مُتّسِمٌ بِاليَقَظةِ المُفْرِطةِ والتّحَوُّطِ والتّدبير. ويُذْكَرُ في هذا أنّهُ قِيلَ لَهُ: «إنّكَ تَلْقَى العامّةَ بِبِشْرٍ وتَقْريبٍ»، فقالَ: «رَفْعُ ضَغينةٍ بِأَيْسَرِ مَؤونةٍ، واكْتِسابُ إِخْوانٍ بِأَهْوَنِ مَبْذُولٍ» (نفسُه، ص١٢٣).

وتُظْهِرُ الأَخْبارُ أنّهُ كانَ ظَريفًا سَريعَ البَديهةِ حادَّ الفَطانةِ، وقد هَيَّأَ لَهُ ذلكَ مَعَ صِفاتٍ أُخَرَ أَن يكونَ مَحَلَّ إعجابٍ عِنْدَ العِلْيةِ المُتصرِّفةِ المُثقَّفةِ في زَمانه. فيُقالُ مَثَلًا إنّ مالِكَ بنَ طَوْقٍ قالَ لِلْعَتّابيّ: «يا أَبا عَمْرٍو، رَأَيْتُكَ كَلَّمْتَ فُلانًا فأَفْلَلْتَ كلامَكَ». قالَ: «نَعَمْ، كانَتْ مَعِي حَيْرةُ الدّاخِلِ، وفِكْرةُ صاحِبِ الحاجةِ، وذُلُّ المَسْألةِ، وخَوْفُ الرَّدِّ مَعَ شِدّةِ الطّمَع» (نفسُه، ص١٢٤). وهذا الحُضُورُ الذِّهنيُّ، وهذا الاسْتِعْدادُ لِلتَّعْبيرِ الحكيمِ المُهَذَّبِ مِيْسَمُ قَلْبٍ خَبيرٍ مُتْقِنٍ ولِسانٍ ذَرِبٍ ذَلِقٍ، ومَعْلَمُ شَخْصيّةٍ - ناميَةٍ مُتكامِلَةٍ؛ ذلكَ لِأنّ «المَرْءَ بِأَصْغَرَيْه: قَلْبه ولِسانِه».

**٢- بَلَدُ النَّشْأة: رَأْسُ عَيْنٍ وقِنَّسْرينُ والرّقّة:**

يَظْهَرُ مِمّا بَيْنَ أَيْدِينا مِن المَصادِرِ أَنّ حَياةَ العَتّابيّ عَرَفَتْ أكثَرَ مِن مَوْطِنٍ بِعَينِه، فثَمّةَ إشارةٌ إِلَى أَنّهُ وُلِدَ في «رَأسِ عَيْن» (ناصِر حَلاوي، العددان ٢ و ٣، ١٩٦٩م، ص٣٦٩). ويذكُرُ المَسْعُودِيُّ أَنّهُ تَغْلَبِيٌّ شاميٌّ ينزِلُ قِنّسْرينَ، ويَسْكُنُ الرّقّةَ مِن دِيارِ مُضَر (المصدر السّابق عن مُروج الذّهب، مج٤، ص١٥).

أَمّا رَأْسُ عَيْنٍ هذه فيَقُولُ عَنْها ياقوتٌ: «مَدِينةٌ كبيرةٌ مَشْهُورةٌ مِنْ مُدُنِ الجَزيرة، بَيْنَ حَرّانَ ونَصِيبِينَ ودُنَيْسِر... وفي رَأسِ عَيْنٍ عُيُونٌ كثيرةٌ عَجيبةٌ صافيةٌ تجتمعُ كلُّها في مَوْضِعٍ فتَصِيرُ نَهْرَ الخابُور... والمَشْهُورُ في النِّسبةِ إِلَيها «الرَّسْعَني»، وقد نُسِبَ إِلَيها «الرّاسِي» (ياقوت الحمَويّ، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، ج٣، ص١٤). ولا نَمْلِكُ مِن الأَخْبارِ ما يَزيدُنا بَصَرًا بِصِلةِ العَتّابيّ بِهذه المدينة.

وأَمّا قِنَّسْرِينُ فكانَتْ كما يقولُ ياقُوتٌ: «مَدِينةً بَيْنَها وبَيْنَ حَلَب مَرْحَلَةٌ مِن جِهةِ حِمْصَ بِقُرْبِ العَواصِمِ، وبَعْضٌ يُدْخِلُ قِنَّسْرينَ في العَواصِم، وما زالَتْ عامِرَةً آهِلَةً إِلَى أَن كانَتْ سَنَةُ ٣٥١ هـ، وغَلَبَتِ الرُّومُ عَلَى مدينةِ حَلَب» (نَفْسه، ج٤، ص٤٠٣-٤٠٤). وليسَ بَيْنَ أيدينا أيضًا ما يُفِيدُنا في إضاءةِ تأثيرِ هذه المَدينةِ في نَشْأةِ العَتّابيّ وثقافتِه.

ويَجْعَلُ المَسْعُوديُّ سُكْنَى العَتّابيّ في الرّقّةِ، وهي «مَدِينةٌ مَشْهُورةٌ عَلَى الفُرات» (نفسُه، ج٣، ص٥٨). والرّقّةُ في زَمانِ العَتّابيّ حاضِرةٌ عَبّاسِيّةٌ كبيرةٌ، ودارٌ مِن دُورِ العِلْمِ والثّقافةِ عامِرَةٌ، وقد أَوْلاها خُلَفاءُ العَصْرِ الذّهبيّ لِدَولةِ بني العبّاسِ عِنايةً خاصّةً فكانَتْ في صُورةِ ما يُشْبِهُ العاصِمةَ الثّانيةَ بَعْدَ بغداد. وثَمّةَ مِن الأَخْبارِ ما يُشيرُ إِلَى إقامةٍ لِلْعتّابيّ في الرّقّةِ، وارْتيادِه أَماكِنَها العامّة، ومُخالطتِه النّاسَ فيها، فقد جاءَ في كتابِ «فَوات الوَفَيات» لابنِ شاكرٍ الكُتُبيّ قَوْلُه في شيءٍ مِن هذا: «قالَ عُمَرُ الورّاق: رأيتُ كُلْثومَ بنَ عَمْرٍو العَتّابيّ الشّاعِرَ يأكُلُ خُبزًا عَلَى الطّريقِ بِبابِ الشّامِ [في الرّقّةِ]. فقُلْتُ له: وَيْحَكَ! أما تَسْتَحي مِن النّاسِ؟- فقالَ: أَرأيتَ لو كُنّا في مَكانٍ فِيهِ بَقَرٌ، أَكُنْتَ تَحْتَشِمُ أَن تأكلَ والبقَرُ يَراكَ؟- فقُلْتُ: لا. فقالَ: «فاصْبِرْ حتّى أُرِيَكَ أَنّ هؤلاءِ النّاسَ بَقَرٌ». ثمّ قامَ فَوَعَظَ وقَصَّ ودَعا حتّى كَثُرَ الزِّحامُ عَلَيْهِ،

فقالَ لَهُم: «رُوِيَ لَنا مِن غيرِ وَجْهٍ أَنّهُ مَن بَلَغَ لِسانُهُ أَرْنبةَ أنفِهِ لم يَدْخُلِ النّارَ!» فما بقيَ أَحَدٌ مِنهم إِلّا أخرجَ لِسانَه نَحْوَ أَرنبةِ أَنْفِهِ لِيَرَى: هَلْ يَبْلُغُها أو لا. فلَمّا تفرّقُوا قالَ لِيَ العَتّابيُّ: أَلَمْ أُخْبِرْكَ أَنّهم بَقَرٌ؟» (ابنُ خَلِّكان، ١٩٧٤م، ج٣، ص٢٢١).

### ٣- العَتّابيُّ البَليغُ اللَّسِنُ:

قَلَّ أن يَظْفَرَ المُتأمِّلُ في تاريخِ الشِّعْرِ العَربيِّ بِشاعِرٍ مُحَلِّقٍ يُجيدُ التّفكيرَ والتّعبيرَ في سُرْعةٍ ويُسْرٍ وإجادة. ويَتراءى لَنا هذا كلُّهُ واضِحًا عِنْدَ العَتّابيِّ في عَدَدٍ مِن المواقِفِ التي تكتنفُها أَوضاعٌ تَجْعَلُ الإجابةَ عَصِيّةً، والرَّدَّ صَعْبًا، وإرضاءَ السّائلِ دُونَهُ خَرْطُ القَتادُ. وقد قَدّرَتِ العَرَبُ مَنْ يَتحلّونَ بِهذِهِ المَلَكةِ، وأَطْلَقَتْ عَلَى إجاباتِهم اسْمَ «الأَجْوِبةِ المُسْكِتة». وثَمّةَ مَظاهِرُ وصُوَرٌ مختلِفةٌ لِبَلاغةِ الجَوابِ هذه عِنْدَ العَتّابيِّ. فقد تكونُ في إجابةِ مَن يُرَجّى رِضاهُ ويُنْشَدُ قَبُولُه، وقد تكونُ في إجابةِ مَن لا يُبتغَى إِلّا إيجاعُهُ:

فَمِنَ الصِّنْفِ الأَوّلِ ما نَقَلَ ياقُوتٌ عَن جَحْظةَ البَرْمَكيِّ في أَماليهِ مِن قَوْلِهِ: «كَلّمَ العَتّابيُّ يحيى بنَ خالِدٍ في حاجةٍ لَهُ كَلِماتٍ قليلةً. فقالَ لَهُ يَحْيَى: «لَقَدْ نَزُرَ كَلامُكَ اليَوْمَ وقَلَّ». فقالَ لَهُ: «وكيفَ لا يَقِلُّ وقد تَكَنّفَني ذُلُّ المَسْألةِ، وحَيْرةُ الطَّلَبِ، وخَوْفُ الرَّدّ؟». فقالَ لَهُ يَحْيَى: لَئِنْ قَلَّ كلامُكَ لَقَدْ كَثُرَتْ فَوائِدُه» (ياقوت الحمَويّ، مُعْجَمُ الأُدباء، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، مج١٧، ص٢٨). ومِن ذلكَ أيضًا أَنّهُ «قِيلَ لِلْعَتّابيِّ: «لَوْ تَزَوَّجْتَ». فقالَ: «إِنّي وَجَدتُّ أَنّ مُكابَدَةَ العِفّةِ خَيْرٌ مِن الاحْتِيالِ لِمَصْلَحةِ العِيال» (نفسُه، ص٣٠). ومِن هذا النَّمُوذَجِ أَيضًا أَنّهُ كَتَبَ إِلَى شَخْصٍ: «مَنِ اجْتَمَعَ فِيهِ مِن خِلالِ الفَضْلِ ما اجْتَمَعَ فِيكَ وانْحازَ إِلَى نَواحِيكَ، لَمْ يَخْشَ المُطْنِبُ في الثّناءِ عَلَيهِ أَن يكونَ مُفْرِطًا كما لا يَأمَنُ أَن يكونَ مُفرّطًا، فالاعترافُ بِالعَجْزِ عن بُلُوغِ اسْتِحقاقِكَ مِن التَّقْرِيظِ أَولَى مِن الإطْنابِ الذي غايتُه التّقصيرُ ومَآلُهُ إِلَى الحَشْو» (نفسُه، ص٣١).

ومِن الصِّنْفِ الثّاني، الذي يَبتغي الرَّدُّ فِيهِ إيجاعَ المُجابِ وإخضاعَهُ، ما رَواهُ الحَسَنُ بنُ وَهْبٍ مِن قَوْلِه: «بَلَغَ العَتّابيَّ أَنّ عَمْرَو بنَ مَسْعدَةَ ذَكَرَهُ عِنْدَ المَأمونِ

بِسُوءٍ، فقالَ:

قَدْ كُنتُ أَرجُو أن تكونَ نَصِيري ... وعَلَى الذي يَبْغي عَلَيَّ ظَهِيري
وطَفِقْتُ آمُلُ ما يُرَجَّى سَيْبُهُ ... حتّى رَأيتُ تَعَلُّقِي بِغُرورِ
فَحَضَرْتُ قَبْرَكَ، ثُمّ قُلْتُ: دَفَنْتُه ... ونَفَضتُّ كَفّي مِن ثَرى المَقْبُورِ
ورَجَعْتُ مُفْتَرِيًا عَلَى الأَمَلِ الذي ... قَدْ كانَ يَشْهَدُ لِي عَلَيْكَ بِزُورِ

فَبَلَغَ الشِّعْرُ عَمْرًا، فَرَكِبَ مِن وَقْتِه إِلَى العَتّابيّ في مَوْكِبِه، حتّى اعْتَذَرَ إليه» (نفسُه، ص٢٩).

ويُستفادُ مِمّا تقدّمَ أَنّ العَتّابيَّ مُمْسِكٌ بِقُوّةٍ بِزِمامِ بَلاغةِ العَرَبِ يقودُها حَيْثُ يشاءُ، وأَنّهُ يُعالِجُ بِها شُؤونَ حَياتِه، وأَنّ البلاغةَ عِنْدَه اسْتِعْمالٌ لِلْبَلاغةِ وتَصَرُّفٌ بِتَقْنياتِها لِتَحْقيقِ المَنشُودِ. وقد أَثْنَى عَلَيْهِ الجاحِظُ ثَناءً تَنْقَطِعُ دُونَهُ آمالُ كِبارِ الأُدباء، فقالَ: «ومِنَ الخُطَباءِ الشُّعَراءِ مِمّن كانَ يَجْمَعُ الخَطابةَ والشِّعْرَ الجيّدَ والرّسائلَ الفاخِرَةَ مَعَ البَيانِ الحَسَن: كُلْثُومُ بنُ عَمْرٍو العَتّابيّ، وكُنْيتُهُ أَبُو عَمْرٍو. وعَلَى أَلْفاظِهِ وحَذْوِهِ ومِثالِهِ في البَدِيعِ يقولُ جَميعُ مَن يتكلّفُ مِثْلَ ذلكَ من شُعَراءِ المُولَّدِينَ» (الجاحظ، [لا تا.]، مج١ ص٥١).

### ٤- الرّعايةُ الفارسيّةُ لِلْعَتّابيّ:

يَلْحَظُ المُتدبّرُ في سَيْرِ حَياةِ العَتّابيّ أَنّ خَيْطًا رَفِيعًا يَرْبِطُ بَيْنَهُ وبَيْنَ رُعاتِه مِن ذَوي الأَرومةِ الفارسيّةِ في طَريقةِ التّفكيرِ والتّعبير. وكانَ هؤلاءِ الرُّعاةُ مِن أُسْرَتَيْنِ فارسيّتَيْنِ لَهُما شَأنٌ كبيرٌ في عَصْرِ الخليفتَيْنِ الرّشيدِ والمَأمونِ، وهُما أُسْرَتا البَرامِكةِ والطّاهِريّينَ. يَقولُ ياقوتٌ عن العَتّابيّ: «صَحِبَ البَرامِكةَ، ثُمّ صَحِبَ طاهِرَ بنَ الحُسَين...» (ياقوت الحمَويّ، مُعْجَمُ الأُدباء، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، مج١٧، ص٢٧).

أَمّا البَرامِكةُ فَأُسْرةٌ فارسيّةُ الأَصْلِ، رُبّما تَرْجِعُ إِلَى مَدينة «بَلْخ». يقولُ الدّكتُر مُحمّد مُعِين: «إِنّ كَلِمةَ «بَرْمَكَ» سَنْسَكريتيّةٌ بِمَعْنى «رَئيس»، وهي لَقَبٌ لِلرّئيسِ الدّينيّ في البُوذِيّةِ، ولَقَبُ أَجدادِ أَفْرادِ أُسْرةِ البَرامكة. وكانَتْ في الأَصْلِ لَقَبًا يُخْلَعُ عَلَى الرّئيسِ الدّينيّ لِلْمَعْبَدِ البُوذيّ (vihāra = بَهار) في مَدِينةِ بَلْخ» (محمّد مُعين، ١٣٧٨ هـ.ش

[١٩٩٩م]، مـج٥، ص٢٥٩). ويقـولُ مُعِيـن: «إنّ البَرامكـةَ أُسْـرةٌ إيرانيّـةٌ لُقِّـبَ أَجْدادُهـا بِلَقَـبِ «بَرْمَـك». وكانَ أَوائِـلُ الـوُزراءِ العَبّاسِـيّينَ المُـهِمّينَ مِن هـذه الأُسْـرةِ. وأَوّلُ رَجُلٍ مُهِـمٍّ مِـن هذه الأُسْـرةِ هويحيى بـنُ خالِدِ بنِ بَرْمَـكَ (ت١٩٠هـ)، الذي كانَ وزيـرًا في بَلاطِ العَبّاسِـيّينَ. ابْنُـهُ الأكبَرُالفَضْلُ (الذي وُلِدَ سـنةَ ١٤٨، ثُمّ قُتِلَ سـنةَ ١٨٧هـ) تَوَلّى حُكْمَ وِلايـاتِ الجِبـالِ وطَبَرسْـتانَ ودَماوَنْـد وكُومش وغَيْرِهـا، وتَوَلّى مُدّةً أيضًـا حُكْـمَ أَرْمِينِيَةَ وأَذْرَبِيجـانَ وخُراسـانَ، وفَتَـحَ عَـدَدًا مِـن البُلْدانِ وأَنشَـأَ مَسـاجِدَ ورِباطات. أَخُـوهُ جَعْفَرٌ (وُلِـدَ نَحْـوَ١٥٠، وقُتِـلَ سَـنَةَ ١٨٧هـ) كانَ صاحِـبَ خَـطٍّ جَمِيـلٍ وبَيـانٍ فَصيـحٍ ومُلِمًّـا بِأَحْـكامِ النّجـومِ. وقـد اهتـمَّ الرّشـيدُ بِهِ كثيـرًا ووَلّاهُ حُكْـمَ عَدَدٍ مِـن الوِلايـات... وزَوّجَهُ الرّشـيدُ أُختَـه «عَبّاسـة»... قُتِـلَ جَعْفَرٌفي صَفَرمِن سـنة ١٨٧هـ، بِأَمْرِالخليفـة، ثُمّ بَعْدَ قليـلٍ قُبِـضَ عَلَى يَحْيَـى وثلاثةٍ مِـن أولادِه الآخَرينَ، وصُـودِرَتْ أَمْوالُهم» (نفسُـه).

ويُهِمّنـا فـي هَمّنـا الحالـيّ أَنّ العَتّابـيَّ كانَ «مُنقَطِعًـا إِلَـى البَرامكـة» (ابـن خَلِّـكان، ١٩٧٤م، ج٤، ص١٢٣)، وكانُـوا يَـرَونَ فيـه تَمَكُّنًـا فِكْرِيًّـا وأَدَبيًّـا يَجْعَلُـهُ خَلِيقًـا حتّـى بِتَعْليـمِ أَبْنـاءِ الخليفـةِ بَعْـضَ مـا يُعَـدُّون بـه لِتَوَلّي إدارةِ شُـؤونِ الدّولـةِ في قابِـلِ الأَيّام. والمُـلاحَظُ فـي الأَدَبِيّـاتِ الفارسـيّةِ، حتّـى الآنَ، أَنّ الإيرانيّيـنَ يُدافِعُونَ عـن أَصْدِقائهم إِلَـى الغايات. وفي شَـأنِ دِفاعِ البَرامكةِ عـن العَتّابيّ نَجْتزئ بهـذه الحِكاية التي يَرْويها ابـنُ خَلِّـكان: «وكان [العَتّابـيُّ] يقـولُ بِالاعْتِـزالِ، فاتّصَـلَ بِالرّشـيدِ، وكَثُرَعَلَيْهِ مِـن أَمْرِه، فأَمَـرَفِيـهِ بِأَمْـرٍغَليـظٍ، فَهَرَبَ إِلَـى اليَمَـنِ وكان مُقيمًا بها. فاحْتـالَ يَحْيَى بـنُ خالِدٍ إِلَى أَن حَمَـلَ لِلرَّشـيدِ مِـن خُطَبِـه ورَسـائِلِه، فاسْتَحْسَـنَ الرّشـيدُ ذلكَ، وسَـأَلَ عـن الكَلام: لِمَـن هُـوَ؟- فقـالَ يَحْيَـى: «هُـوَلِلْعَتّابـيّ، ولَوْحَضَـرَحتّى يَسْـمَعَ مِنْـهُ الأَمِينُ والمَـأمونُ هـذا الـكلامَ، ويَصْنَـعَ لَهُمـا خُطَبًـا، لَـكانَ في ذلـكَ صَـلاحٌ». فَأَمَرَبِإحْضـارِه، فَأَخَـذَ لَهُ يَحْيَـى الأَمـانَ، واتّصَلَ الخَبَـرُبِالعَتّابـيّ، فقالَ:

ما زِلْتُ في غَمَراتِ المَوْتِ مُنْطَرِحًا ... قد غابَ عَنّي وُجوهُ الأَمْرِمِن حِيَلي

فَلَمْ تَزَلْ دائبًا تَسْعَى لِتُنْقِذَني ... حتّى اسْتَلَلْتَ حَياتي مِن يَدَي أَجَلي

(ابـن خَلِّـكان، ١٩٧٤م، مـج٤، ص١٢٢-١٢٣). وقـد جَعَـلَ ياقـوتٌ الـذي خَلّـصَ العَتّابـيَّ مِـن هذه المِحْنةِ جَعْفَربنَ يَحْيَـى، لا يَحْيَى بنَ خالد. (يُنظَر: ياقوت الحمَويّ،

مُعْجَمُ الأُدباء، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ج١٧، ص٢٧) ويُحَصَّلُ مِن هذا الخَبَرِ أَنّ العَتّابيّ كان أَحْيانًا شَكِسًا ذا مَوْقِفٍ، وأنّ يَحْيَى بنَ خالِدٍ، مُؤدِّبَ أَبْناءِ الرّشيدِ المُؤثَرَ، كانَ مُعْجَبًا جِدًّا بِأَدَبِ العَتّابيّ، خُطَبًا ورَسائلَ، وكانَ يَرَى فِيهِ نَمُوذَجًا يُحاكَى في البلاغَةِ والكلامِ الرّفيع. والأَساسُ في اسْتِحْسانِ أَدَبِ أَدِيبٍ إنّما هُوَ الانْسِجامُ الرُّوحيُّ، وما الحُسْنُ والبَهْجةُ والقَبُولُ والسِّحْرُ التي يُؤلِّفُ مجموعُها «الطَّلاوةَ» إلّا أَلْفاظٌ مُعَبِّرةٌ عن حُبِّ «المُوافِقِ لِلنَّفْس» والتَّلَذُّذِ به.

وقد تقدّمَ أَنّ يحيى بنَ خالِدٍ هذا قالَ لِلْعَتّابيّ: «لَئِنْ قَلَّ كلامُكَ لَقَدْ كَثُرَتْ فَوائِدُه». ويَبْدُو أَنّ سُلْطانَ الإِعْجابِ بِأَدَبِ العَتّابيّ قَدْ جَعَلَ الرَّجُلَ ذا مَنْزِلةٍ سَنِيّةٍ، ليسَ فقط عِنْدَ يَحْيَى بنِ خالِدٍ، بل عِنْدَ الرّشيد، كما تَقدّمَ، وعِنْدَ المَأمونِ أيضًا. بل كانَ العَتّابيُّ مُقدَّمًا كثيرًا عِنْدَ المأمون، وقد ذَكَرَ لَنا ابنُ خَلِّكان هذه الحكايةَ في هذا الشّأنِ: «كتَبَ المأمونُ في إِشْخاصِ العَتّابيّ، فلَمّا دَخَلَ عَلَيهِ قالَ لَهُ: «يا كُلْثُومُ بَلَغَتْني وفاتُكَ فساءَتْني، ثُمّ بَلَغَتْني وِفادَتُكَ فسَرَّتْني». فقالَ لَه العَتّابيُّ: «يا أَمِيرَالمُؤمِنينَ، لَوْ قُسِمَتْ هاتانِ الكَلِمتانِ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَوَسِعَتْهم فَضْلًا وإِنْعامًا. وقد خَصَصْتَني مِنْهُما بِما لا يَتّسِعُ لَهُ أُمْنِيّةٌ ولا يَنْبَسِطُ لِسِواهُ أَمَلٌ؛ لِأَنّهُ لا دِينَ إِلّا بِكَ، ولا دُنْيا إِلّا مَعَكَ. قالَ: سَلْني. قالَ: «يَدُكَ بِالعَطاءِ أَطْلَقُ مِن لِساني بِالمَسْألة». فوَصَلَهُ صِلَةً سَنِيّةً، وبَلَغَ مِن التّقديمِ والإِكْرامِ أَعْلَى مَحَلّ» (نفسُه، ص١٢٤).

وأَمّا في شَأنِ الطّاهِرِيّينَ والعَتّابيّ فالظّاهِرُ أَنّ العَتّابيَّ لَقِيَ رِعايةَ طاهِرِبنِ الحُسَين، المَعْرُوفِ بِـ«ذي اليَمينَيْن». وكانَ طاهِرٌ هذا مُوطِّدَ حُكْمِ المَأمونِ في بَغْدادَ وفي أَرْجاءِ دَولةِ بَني العَبّاس. وقد عَرّفَه الدّكتُر مُعِين عَلَى هذا النّحو: «طاهِرُبنُ الحُسَينِ بنِ مُصْعَبِ بنِ رُزَيقِ بنِ ماهان، مِن رجالِ عَهْدِ المَأمونِ العَبّاسيّ (وُلِدَ سَنَةَ ١٥٩هـ، وتُوُفّيَ في مَرْوَ سَنَةَ ٢٠٧هـ). وحِينَ أَقامَ المَأمُونُ في «مَرْو» وخَلَعَ بَيْعةَ الأَمِينِ أَخيهِ، أَجْرَى طاهِرًا إِلَى بَغْدادَ، لِكَي يُقاتِلَ الأَمِينَ. فَأَرْسَلَ الأَمِينُ عَلِيَّ بنَ عِيسَى بنِ ماهان لِرَدِّ طاهِرٍ، فَنَشِبَتْ بَيْنَ ذَيْنِكَ الاثْنَيْنِ مَعْرَكةٌ وقُتِلَ عَلِيُّ بنُ عِيسَى (١٩٨هـ). وأَرْسَلَ طاهِرٌ رَسُولًا إِلَى المَأمون، وطَلَبَ أَمْرًا في شأنِ مُعامَلةِ الأَمِين. فَأَرْسَلَ المَأمُونُ في إِجابةِ طاهِرٍ قَمِيصًا مُمَزَّقَ مَحَلِّ العُنُق. فَفَهِمَ طاهِرٌ أَنّ قَصْدَ المَأمونِ هُوَ قَتْلُ الأَمِين، وهكذا

حاصَرَ الأَمِينَ وأَسَرَهُ وقَتَلَهُ وأَرْسَلَ رَأْسَهُ إِلَى خُراسانَ. وبِهذه الطّريقةِ استقرَّ لِلْمَأمونِ أَمْرُ الخِلافة، وكان دائمًا يُقدّرُ طاهِرًا. لَقّبَهُ المَأمونُ بِـ«ذِي اليَمينَيْنِ». وكانَ طاهِرٌ أَديبًا وفَصِيحًا ومُدبّرًا، وكانَ يَحْتَرِمُ الشُّعَراءَ ويَرْعاهُم» (محمّد مُعين، ١٣٧٨هـ.ش [١٩٩٩م]، مج٥، ص١٠٧٠).

هذا، إذَن، الرّاعِي الفارسيُّ الثّاني لِلْعَتّابيّ، الذي يقولُ عَنْهُ مُعِين: «كان مِن مَدّاحي البَرامكةِ، وقد مَدَحَ أيضًا هارونَ الرَّشيد وعَبْدَ اللهِ بنَ طاهِر» (نفسُه، ص١١٥٩). وما نَراهُ ذا أَهَمّيّةٍ هنا أنّ العَتّابيَّ لا بُدَّ مِن أن يكونَ تَعَرّفَ الرُّوحَ الفارسِيَّ، وتَعَلَّمَ مِن راعِيَيْهِ الأَديبَيْنِ الكبيرَيْنِ ثَقافةً فارسيّةً مِن طِرازِ «لُبِّ اللُّبابِ»، في الفِكَرِ والمَعاني وطرائقِ التّعبير. ومُهِمٌّ أيضًا الإشارةُ إِلَى أنّ صُحْبةَ العَتّابيّ لِيَحْيَى بنِ خالدٍ وطاهِرِ بنِ الحُسَين كانَتْ في بَغْدادَ أَوّلًا، وفي مَدِينةِ «مَرْو» ثانيًا. واطّلاعُ العَتّابيّ عَلَى ثقافةِ الفُرْسِ باللّغةِ الفارسيّة، كانَ في مَدينةِ «مَرْو»، حَيْثُ إقامةُ المَأمونِ وطاهِرِبنِ الحُسَيْن.

### ٥- مَرْوُ ومكتباتُها واطّلاعُ العَتّابيّ عَلَى كُتبِها الفارسيّة:

يَظْهَرُ مِمّا تَقَدّمَ أَنّ الرّعايةَ الفارسيّةَ التي لَقِيَها العَتّابيُّ مِن يَحْيَى بنِ خالِدٍ البَرْمكيّ وطاهِربنِ الحُسَين، والمَنْزِلةَ العالِيَةَ التي حَقّقَها العَتّابيُّ عِنْدَ راعِيَيْهِ الفارسيَّيْنِ، وعِنْدَ راعِيَيْهِ العَرَبيَّيْنِ الكبيرَيْنِ، الرَّشيدِ والمَأمون، عَمِلَتا عَلَى إِنْماءِ إِحْساسٍ باطنيٍّ عِنْدَ العَتّابيّ بِأَنّهُ صارَ «بُغْيةَ» عُظَماءِ رِجالِ عَصْرِه في السِّياسةِ والإدارةِ والأَدَب، وبِأَنّ عَلَيهِ أن يَمْضِيَ في المَسارِ الذي تَقدَّمَ فِيهِ كثيرًا إِلَى الآخِر، فَيَزيدَ مَحْصُولَهُ مِن ثقافةِ الفُرْسِ ومَعانِيهِم وفِكَرِهِم. وهذا ما كانَ حَقًّا وأَخْبَرَنا به أَبُو الفَضْلِ أَحْمَدُ بنُ طاهِرٍ الكاتبُ المَعْروفُ بِابْنِ طَيْفُور (ت٢٨٠هـ) حَيْثُ يقولُ:

«حَدّثَني أَبُو الحَسَنِ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدٍ المُهلَّبيّ قالَ: حَدّثَني يَحْيَى بنُ الحَسَنِ بنِ عَلِيّ بنِ مُعاذِ بنِ مُسْلِمٍ قالَ: «إِنّي كُنْتُ بِالرّقّةِ بَيْنَ يَدَي مُحَمَّدِ بنِ طاهِربنِ الحُسَينِ عَلَى بِرْكةٍ، إِذْ دَعَوْتُ بِغُلامٍ لِي فكلَّمْتُه بِالفارسيّةِ، فَدَخَلَ العَتّابيُّ وكانَ حاضِرًا في كَلامِنا، فتكلَّمَ مَعِي بالفارِسيّة. فقُلْتُ لَهُ: أَبا عَمْرٍو، مالَكَ وهذه الرَّطانةِ؟- قالَ: فقالَ

لِي: «قَدِمْتُ بَلَدَكم هذه ثلاثَ قَدَماتٍ، وكتَبْتُ كُتُبَ العَجَمِ التي في الخِزانةِ بِمَرْوَ، وكانَتِ الكُتُبُ سَقَطَتْ إِلَى ما هُناكَ مَعَ يَزْدَجِرْدَ، فهِيَ قائمةٌ إِلَى السّاعةِ، فقالَ: كتَبْتُ مِنْها حاجتي، ثُمّ قَدِمْتُ نَيْسابُورَ، وجُزْتُها بِعَشْرِ فَراسِخَ إِلَى قَرْيةٍ يُقالُ لَها ذُودَر، فذَكَرْتُ كِتابًا لَمْ أَقْضِ حاجتي مِنهُ، فَرَجَعْتُ إِلَى مَرْوَ فأَقَمْتُ أَشْهُرًا. قالَ: قُلْتُ: «أَبا عَمْرٍو، لِمَ كتَبْتَ كُتُبَ العَجَمِ؟»- فقالَ لِي: «وهَلِ المَعاني إِلّا في كُتُبِ العَجَمِ! والبَلاغةُ: اللّغةُ لَنا، والمَعاني لَهُم. ثُمّ كانَ يُذاكِرُني ويُحدِّثُني بالفارسيّةِ كثيرًا» (ابنُ طَيْفُور، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ص٨٧).

راوي هذه الرِّوايةِ مُؤرِّخٌ كبيرٌ يقولُ عنه بَعْضُهم إنّهُ إمامُ المُؤرِّخينَ وحُجّتُهم وأَوّلُ مَن كتبَ في تاريخِ مَدِينةِ السَّلامِ «بغداد»، وهو قَريبُ عَهْدٍ مِن زَمانِ البَرامِكةِ والطّاهريّينَ. ويَرْوِي هذا المُؤرِّخُ أَنّهُ حُدِّثَ بِما جَرَى، فقالَ: «حَدّثَني»، وأنّ الذي حَدّثَهُ رَوَى مُباشَرةً عَمّن حَدَثَتْ لَهُ الحادثةُ، مَعَ تَعْرِيفٍ مُتْقَنٍ بِالرّاوِيَيْنِ: مَن هُما. ويُدَلِّلُ هذا عَلَى أَنّ الرّوايةَ أَدْنَى إِلَى الضَّبْطِ والصِّحّة.

ويَعْنينا في الرِّواية أكثرَ ما يَعْنينا أَنّ العَتّابيَّ زارَ مَرْوَ أَرْبَعَ مَرّات، وأَنّهُ استَنْسَخَ كُتُبَ العَجَم، وهم هُنا الفُرْسُ، وأَنّهُ كانَ كثيرَ العِنايةِ بِكُتُبِ العَجَمِ، وأَنّهُ في الزَّوْرةِ الأَخيرةِ أَقامَ في «مَرْوَ» أَشْهُرًا، وأَنّهُ سُئِلَ: «لِمَ كَتَبْتَ كُتُبَ العَجَم؟»- فأجابَ: «وهَلِ المَعاني إِلّا في كُتُبِ العَجَمِ»، وأَنّ عُنْصُرَي البلاغةِ الأساسِيَّيْنِ عِنْدَهُ: لُغةُ العَرَبِ ومَعاني العَجَم، وأَنّه كانَ يُذاكِرُ الرّاويَ ويُحَدِّثُه بِالفارسيّة».

ويُستفادُ مِن الرِّوايةِ أَنّ العَتّابيَّ ظَلَّ مَرْعِيًّا مِن الطّاهِرِيّينَ إِلَى أن أَدْرَكَ مِنهم مُحَمَّدَ بنَ عَبْدِ الله بنِ طاهِر، الذي يقولُ عنه صاحِبُ الأَعْلام: «أَمِيرٌ، حازِمٌ، مِنَ الشُّجْعانِ، مِن بَيْتِ مَجْدٍ ورِياسة. وَلِيَ نِيابةَ بَغدادَ في أيّامِ المُتَوَكِّلِ العَبّاسيّ، وتُوفِّيَ بِها... وكانَ فاضِلًا أَدِيبًا جَوادًا، قالَ الخَطيبُ البَغْداديُّ: كانَ مَأْلَفًا لِأَهْلِ العِلْمِ والأَدَب» (خير الدّين الزِّرِكْليّ، ١٩٧٩م، مج٦، ص٢٢٢).

وأَجِدُني في حاجةٍ إِلَى إِعْلامِ القارئ الكريمِ بِـ«مَرْوَ» هذه، التي قَدِمَها العَتّابيُّ أَرْبَعَ قَدَماتٍ، وعَبَّ مِن يَنابيعِ العِلْمِ الفارسيِّ فيها:

هناكَ مَدِينتانِ في خُراسانَ تَحْمِلانِ اسْمَ «مَرْو»، إِحْداهُما مَرْوُالرُّوذ، ومَعْنَى اسْمِها:

مَـرْوُ النّهـر. والأُخْـرَى «مَـرْوُ الشّـاهِجان». ويبـدو أنّ هـذه هـي التـي عَناهـا الـرّاوي فيما تَقـدَّمَ، وهـي «مدينةُ مَـرْوِ الرَّقّة»، كما نَقَـلَ ياقُوتٌ عن بَطْليموس في كتاب «المَـلْحمة» (ياقـوت الحمَـويّ، مُعْجَـمُ البُلْـدان ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، مـج٥، ص١١٣). ويقـولُ ياقُوتٌ عَنْهـا: «هـذه مَـرْوُ العُظْمَى، أَشْـهَرُ مُـدُنِ خُراسـانَ وقَصَبَتُهـا... والنِّسـبةُ إلَيها «مَـرْوَزِيٌّ» عَلَـى غيـرِ قِيـاس، والثَّـوْبُ «مَـرْوِيٌّ»، عَلَى القِيـاس... وأَمّـا «الشّـاهِجانُ» فهي فارسـيّةٌ مَعْناهـا «نَفْـسُ السُّـلْطان».. سُـمِّيَتْ بذلـكَ لِجَلالَتِهـا عِنْدَهـم... وتَرَكتُهـا أنـا [ياقوت] فـي سَـنةِ ٦١٦هـ. عَلَى أَحْسَـنِ ما يكونُ، وبِمَـرْوَ جامِعـانِ لِلْحَنَفيّةِ والشّـافعيّةِ يَجْمَعُهما السُّـورُ. وأَقَمْـتُ بِهـا ثلاثـةَ أَعْـوامٍ... ولَوْلا مـا عَرا مِـن وُرودِ التَّتَـرِ إلَى تِلْـكَ البِـلادِ وخَرابِها لَمـا فارَقتُها إلَى المَـماتِ؛ لِمـا في أَهْلِها مِن الرِّفْدِ ولِينِ الجانبِ وحُسْـنِ العِشْـرةِ، وكَثْرةِ كُتُـبِ الأُصـولِ المُـتقَنة بِهـا؛ فَإنّـي فارَقْتُهـا وفِيهـا عَشْـرُ خَزائـنَ لِلْوَقْفِ لـم أَرَ فـي الدّنيا مِثْلَهـا كَثْـرةً وجُـودةً، مِنها خِزانَتـانِ في الجامِعِ، إحْداهما يُقـالُ لَها «العَزيزيّـةَ»... وكانَ فِيهـا اثْنَـا عَشَـرَ أَلْفَ مُجَلَّـدٍ أَو ما يُقارِبُهـا؛ والأُخْـرَى يُقالُ لَهـا «الكَماليّةَ»... وبِهـا خِزانةُ شَـرَفِ المُـلْكِ المُـسْتَوْفي... وخِزانـةُ نِظامِ المُـلْكِ الحَسَـنِ بنِ إسْـحاقَ في مَدْرَسَـتِه، وخِزانَتانِ لِلسَّمْعانِيّينَ، وخِزانةٌ أُخْرَى في المَـدْرسةِ العَميديّة، وخِزانةٌ لِمَجْدِ المُلْك... والخَزائـنُ الخاتُونيّـةُ... وكانَـتْ سَـهْلةَ التّنـاوُلِ لا يفـارِقُ مَنْزِلـي مِنهـا مِئتا مُجَلَّـدٍ وأكثَرُ بِغَيْـرِ رَهْـنٍ تكـون قِيمتُهـا مِئتَي دِينار، فكُنـتُ أَرْتَعُ فِيهـا، وأَقتبِسُ مِن فَوائِدِها، وأَنْسـاني حُبُّهـا كُلَّ بَلَـدٍ، وأَلْهانـي عن الأَهْـلِ والوَلَد» (نفسُـه، ص١١٢-١١٤).

وغَيْـرُ خـافٍ عَلَينـا أَنَّهُ بَيْنَ «مَـرْو» حِينَ قُدومِ العَتّابـيّ إلَيها، وبَيْنَها حِيـنَ إقامةِ ياقُوتٍ فيهـا قَرِيـبٌ مِـن أَرْبَعةِ قُرُونٍ، وهـذا وَقْتٌ يُتيـحُ أَنْ تَغْدُوَ الفَسـيلةُ الصَّغيرةُ شَـجَرةً كبيرةً مُمْتـدّةَ الأَفْنـانِ فـي كُلِّ اتّجاه. وأَيًّـا كانَتِ الحالُ، فَنَحْنُ أَمـامَ أَدِيبَيْنِ عَرَبِيَّيْنِ شـامِيَّيْنِ كبيرَيْـنِ ذَهَبـا إلَى أَقاصـي إيرانَ القديمـةِ ونَهِلا وعَلّا مِن ثقافـةِ الفُرْس.

**٦- رُؤيةٌ جَدِيدةٌ بالاهْتمامِ عِنْدَ العَتّابيّ: لُغةُ العَرَب تَغْنَى بِمَعاني العَجَم (الفُرْس):**

عُقُـولُ الأَفْـذاذِ فـي كُلِّ أُمّـةٍ هـي التـي تُطـوِّرُ اللّغـاتِ والآدابَ والعُلُـومَ. وكانَ العَتّابـيُّ عَلَمًـا مِن أَعْـلامِ الارتقاءِ بِبَلاغـةِ العَرَبِ وتَرَسُّـلِهم وخَطابَتِهم. رَجُلٌ واحِـدٌ، بِهِمّةِ رِجالٍ،

يُبْدِعُ إِلَى الغايةِ في شِعْرِ أُمّتِه وتَرَسُّلِها وإنشائِها الأَدَبيّ، لكنّهُ يَنْشُدُ السَّناءَ والرِّفْعةَ في هذا المِضمار، فيَخوضُ قَلْبَ الخِضَمّ، ويَتحمَّلُ وَعْثاءَ السَّفَرِ والإقامةِ في المُغتَرَبِ وانتساخِ الكُتُبِ بِخَطِّ يَمينِه وحَمْلِ ما كانَ قد انتسَخَ. العَتّابيُّ، إِذَن، نَمُوذَجٌ لِلْمُبْدِعِ الأَدَبيّ الذي انطوَى صَدْرُه عَلَى الاشْتياقِ لِإِنْماءِ نَفْسِه، وإِعْلاءِ شَأنِ أُمّته. وأَحْسَبُ أَنّ تَفَوّقَهُ في أَدَبِ العَرَبِ وتَمَكُّنَه مِن أَدَبِ الفُرس هَيَّأَا في شَخْصِه لِإِنْشاءِ أَدَبٍ عَرَبيٍّ سَداهُ لَغةُ العَرَبِ القادِرةُ عَلَى الإبانةِ بِأَعْلَى الدَّرَجات، ولُحْمَتُه مَعاني العَجَمِ الدّقيقةُ النّاعِمةُ الحكيمةُ التي تُنْعِشُ حَبّاتِ القُلُوب.

### ٧- آثارٌ لِمَعاني الفُرْسِ في شِعْرِ العَتّابيّ ونَثْرِه:

مِن العَصِيّ الكلامُ بِحُرّيّةٍ وإصابةٍ عَلَى مَضْمونٍ وشَكْلٍ في أَدَبٍ رَفيعٍ في أَيِّ جِنْسٍ مِن أَجْناسِ هذا الأدَب؛ لِأَنّ المَضْمُونَ مُتَخلِّقٌ بِالشّكْلِ، والشّكْلَ مُخَلِّقٌ لِلْمَضْمُون. ومِثْلَما أنّ اليَنْبُوعَ ماءٌ خاصٌّ في مَجْرًى خاصٍّ، الأَدَبُ الرّفيعُ فِكْرٌ خاصٌّ في مَجْرًى لُغَوِيٍّ خاصّ. ويَبْدُو أَنّ ماءَ أَدَبِ العَتّابيّ في مَجْراهُ اللُّغَويّ العَرَبيّ هو في جُمْلتِه الذي راقَ يَحْيَى بنَ خالِدٍ البَرْمكيّ الذي قالَ لِوَلَدِه الذين كانُوا يتعلَّمُونَ عَلَى العَتّابيّ: «إِنْ قَدَرْتُمْ أَن تكتُبُوا أَنْفاسَ كُلْثُومِ بنِ عَمْرٍو العَتّابيّ، فَضْلًا عن رَسائِلِه وشِعْرِه، فلَنْ تَرَوا أَبَدًا مِثْلَهُ» (أحمد فريد الرّفاعي، ١٩٢٧م، مج٣، ص٢٥٠).

ويتراءى أَنّ العَتّابيَّ كان مُتْرَعًا بِمَعاني الفُرْسِ إِلَى مِقْدارِ الكِظّةِ والامْتِلاء التّامّ. وفي «الرّسالةِ العَذْراء» لِابْنِ المُدَبّر قَوْلُهُ فِيما يُدَلِّلُ عَلَى هذا: «حَدَّثَنا صَدِيقٌ لِلْعَتّابيّ، قالَ له: «اعْمَلْ لي رِسالةً»، واسْتَمَدّهُ مَرّةً بَعْدَ أُخْرَى، فقالَ له: «ما أَرَى بَلاغتَكَ إِلّا شارِدةً». فقالَ العَتّابيُّ: «لَمّا تَناوَلْتُ القَلَمَ، تَداعَتْ عَلَيَّ المَعاني مِن كُلِّ جِهةٍ، فَأَحْبَبْتُ أَن أَتْرُكَ كُلَّ معنًى يَرْجِعُ إِلَى مَوْضِعِه، ثُمَّ أَجْتَبي لَكَ أَحْسَنَها» (مُحمّد كُرد علي، ١٩٥٤م، ص٢٤٤). وما أجابَ به العَتّابيُّ صاحِبَه يَحْكِي تَمامًا مَقالةَ مُتْرَعٍ آخَرَ بِمَعاني الفُرْسِ في الفِكْرةِ نَفْسِها، حِينَ يقولُ ابنُ المُقفّع: «إِنّ الكلامَ يَزْدَحِمُ في صَدْري، فَأَقِفُ لِتخيُّرِه».

ويَبْدُو أَنّ مَعانيَ الفُرْسِ كانَتْ حَيّةً فَعّالةً ليسَ فقط في فِكْرِ العَتّابيّ، بل في حَرَكتِهِ

وسُلُوكه، «فَحِينَ سُئِلَ عَن عَدَمِ كِتابَتِه لِلْأميرِ أو دُخُولِهِ في خِدْمتِه، قالَ: «لِأَنّي رَأيتُه يُعْطي رَجُلًا أَلْفَ مِثْقالٍ بِلا خَصْلةٍ، ويَرْمي آخَرَ مِن أَعْلَى السُّورِ عَلَى الرَّأسِ بِلا ذَنْبٍ، فلا أَدْري أَيُّ الرَّجُلَيْنِ أَكونُ عِنْدَه، مَعَ أَنّ الذي أُعْطِي في ذلكَ أكثَرُ مِن الذي آخُذُ»، يُريدُ مُهْجتَه ورُكُوبَ الغَرَرِ فِيها مَعَهُ» (القرطبي، (لا تا.)، ص٣٤٨). ولا يمكنُ تَفْسيرُ ذلكَ إلّا في ضَوْءِ ما انتشَرَ مِن آدابِ الفُرْسِ في هذا العَصْرِ، تِلْكَ التي تُحَذِّرُ مِن صُحْبةِ المُلُوكِ، وتُحَدِّدُ ضُرُوبًا مِن الأَخْلاقِ فِيمَن يُعِدُّ نفسَهُ لِصُحبتِهم، كالذي يُرْوَى مِن أَنّ بُزُرْجمِهْرَ سُئِلَ: أَيُّ التَّعَبِ أَدْوَمُ؟- فقالَ: صُحْبةُ السُّلْطانِ السَّيِّئِ الخَليقةِ» (ابن مسكويه، ١٩٥٢م، ص٣٦)، وأَنّهُ سُئِلَ: «أَيُّ شَيءٍ أَسْرَعُ تقلُّبًا؟- قالَ: قَلْبُ المُلُوكِ» (نفسه، ص٣٦). ومِن هذا القَبيلِ أَيضًا الحِكْمةُ الفارسيّةُ التي وَرَدَتْ في الأَدَبِ الكبيرِ (محمد كُرد علي، ١٩٥٤م، ص٦٩): «لا تكُونَنَّ صُحْبتُكَ لِلْمُلُوكِ إلّا بَعْدَ رياضةٍ مِنْكَ لِنَفْسِكَ عَلَى طاعتِهم في المُكْرُوهِ عِنْدَكَ، ومُوافقَتِكَ فِيما خالَفَكَ، وتقديرِ الأُمُورِ عَلَى مَيْلِهِم دُونَ مَيْلِكَ» (عيسى علي العاكوب، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، ص٤٢٩-٤٣٠).

ويَلْحَظُ المُتأمِّلُ أَنّ رُؤيةَ العَتّابيِّ الشِّعْرَ والأدَبَ جُمْلَةً تُختصَرُ في أَنّهُ استنباطٌ لِلْمَعاني الأبْكارِ وإِخْراجٌ لَها بِأَرْديةِ الرَّوعةِ والفَخارِ، لِكَي تَتخلّقَ صُورةُ مَعْنًى شَرْطُها التّناغُمُ والانسجامُ وقُوّةُ الإظهارِ، وهو يقولُ في هذا: «الأَلْفاظُ أَجْسادٌ، والمَعاني أَرْواحٌ، وإِنّما نَراها بِعُيُونِ القُلُوبِ، فَإن قَدَّمْتَ مِنها مُؤخَّرًا، أَو أَخَّرْتَ مِنها مُقدَّمًا أَفْسَدتَّ الصُّورةَ، وغَيّرتَ المَعْنَى، كما لو حُوِّلَ رَأْسٌ إِلَى مَوْضِعِ يَدٍ، أو يَدٌ إِلَى مَوْضِعِ رِجْلٍ، تَحَوّلَتِ الخِلْقةُ، وتغيّرتِ الحِلْيةُ» (أبو هلال العسكريّ، (لا تا.)، ص١٦٧).

وفي آلةِ إنتاجِ الأَدَبِ عِنْدَ العَتّابيِّ قُوّتانِ: قُوّةٌ مستنبطةٌ لِلْمعاني مُخَلّقةٌ لها، وقُوّةٌ باحِثةٌ عن طَريفِ المَعاني ودَقيقِها وما يُعَلِّمُ العقولَ مِنها، فَإذا هو وَجَدَها عِنْدَ الفُرْسِ جَعَلَها غَنِيمةً مَحَلُّها العَقْلُ والقَلْبُ ومُظْهِرُها اللِّسانُ في أَبْهَى صُورةٍ لِلْبَيان. وفي «مُحاضَراتِ الأُدَباءِ» لِلْإصْفهانيِّ أَنّهُ «قِيلَ لِابْنِ المُقفَّعِ: لِمَ لا تَطْلُبُ الأُمورَ العِظامَ؟- فقالَ: رَأَيْتُ المَعالِيَ مَشُوبةً بِالمَكارِهِ، فاقتَصَرْتُ عَلَى الخُمولِ ضَنًّا بِالعافيةِ، فَأخذَهُ العَتّابيُّ، وقالَ:

دَعِيني تَجِئني مِيتَتي مُطْمَئنّةً ولَم أَتجشَّمْ هَوْلَ تِلْكَ المَوارِدِ
فَإنّ جَسيماتِ الأُمُورِ مَشُوبةٌ بِمُستَوْدَعاتٍ في بُطونِ الأَساوِدِ

(الإصفهانيّ، مج١، ص٢٧٧) ولِأَنّ المَقامَ لا يأذَنُ بِإطالةٍ أكثَرَ، ولِأَنّ الرّبيعَ يُختصَرُ بِبَعْضِ العِطْرِ، ولِأنّ هاضِمةَ الأَفْهامِ لا طاقةَ لَها لِهَضْمِ ما زادَ عَلَى حاجاتها، نكتفي بِهذا الذي كانَ مِنّا.

**٨- المُستَخْلَصُ الأَخيرُ، أو قَصيرةٌ مِن طويلة( *):**

أَظْهَرُ البَحْثُ، بِتأييدِ اللهِ سُبْحانَه، أنّ العَتّابيَّ، الشّاعِرَ العَرَبيَّ الشّامِيَّ في أَزْهى أَعْصُرِ الدّولةِ العَبّاسيّة، كانَ ذا اسْتِعدادٍ مُبكّرٍ لِالْتِهامِ أَساسِيّاتِ الثّقافةِ العَرَبيّةِ، شِعْرًا ورَسائلَ وخُطَبًا، وأَنّهُ كانَ تَوّاقًا إِلَى تَقْديمِ أَدَبٍ يُنَمّي العقولَ ويَجْلُو صَدَأَ الأَذْهان، ويُحرّكُ النّفوسَ، ويَهُزُّ الطِّباع. وقد اهْتَدَى إِلَى أَنّ جَوْهَرَ الأَدَبِ مُوْجودٌ في مَنْجَمِ المَعاني التي تَعْمُرُ القُلُوبَ، وأَنّ هذه المَعانيَ مُتوفّرةٌ في فِكْرِ الفُرْسِ وبَناتِ صُدُورِهم، فالتمسَ السَّبيلَ إِلَى ذلكَ بِقُوّة، ووَجَدَ في يَحْيَى بنِ خالِدٍ البَرْمكيّ وعَبْدِ اللهِ بنِ طاهِرٍ الخُزاعيّ، الفارسيَّيْنِ الأَدِيبَيْنِ البارِعَيْنِ، نَصِيرًا قَوِيًّا يُقَرّبُه ويُغدِقُ عَلَيهِ مِن سَحائِبِ الثّناءِ والإِطْراء، وهِباتِ العَطاءِ بِسَخاء. فقَدَّمَ هو كُلَّ ما استطاعَ أن يقدّمَ، ونالَ كُلَّ ما أُتيحَ لَهُ أَن ينالَ، فَدَفعَهُ ذلكَ كُلُّه إِلَى أَن يَمْضيَ إِلَى شَرْقيّ خُراسانَ، ويَزورَ المَدِينةَ الفارسيّةَ «مَرْو الشّاهِجان» أَرْبَعَ زَوْراتٍ ويَمْكُثَ مُدّةً في حَضْرةِ الكُتبِ الفارسيّةِ فيها، يُطالِعُها بِلُغَتِها، ويَنْسَخُ مِنها ما راقَهُ واستطابَه. ولَبّى العَتّابيُّ بِذلكَ كُلِّه مَطالِبَ عَقْلِه المُبْدِع، ومآرِبَ رُوحِه التّوّاقِ إِلَى النّماء. ثُمّ مِن هذا الخُبْرِ العَظيمِ، والبَصَرِ النّفّاذِ، خَلَصَ إِلَى «مَبْدَأ» تصوّرَ أنّهُ يُطوّرُ البلاغةَ العربيّةَ، ويَرْتَقي بِأَدَبِ العَرَبِ، شِعْرًا وتَرَسُّلًا وخَطابةً، وهو أنّ عِمادَ البلاغةِ: لُغةُ العَرَبِ ومَعاني العَجَم. وقد ظَهَرَتْ مَعالِمُ ذلكَ أَيْما ظُهُورٍ في تَضاعيفِ ما أَبْدَعَ مِن شِعْرٍ ورَسائلَ ومُصَنّفاتٍ. وفي مُسْتطاعي أَن أقولَ: إنّ العَتّابيَّ بَدَأَ تَحْصيلَه في ثقافةِ العَرَبِ في حَلَبَ وبَغْدادَ،



*. تَعْبيرٌ مَثَلِيٌّ عَرَبيٌّ قديمٌ عن أَخْذِ الصّغير، الذي هو المطلوبُ، مِنَ الكبير، بِأَخْذِ التَّمْرةِ القَصيرةِ مِن النَّخْلةِ الطّويلة. وقَصَدْنَا مِن اسْتِعمالِهِ هنا إِحْياءَ اسْتِعمالِهِ في عَرَبيَّتنا المُعاصِرة.

ثـمّ خَتَـم ذلـكَ بِمَحْصُـولٍ ثَقافـيٍّ فارسـيٍّ فـي مَدِينـة «مَـرْو»، في أقصـى خُراسـانَ. هذه المَـدينةُ التـي اسـتَلَبَتْ في مَطْلَعِ القَرْنِ السّـابِعِ الهجـريّ لُـبَّ أَدِيبٍ عَرَبـيٍّ آخَرَ كبيرٍ هو ياقـوتٌ الحَمَـويُّ، الـذي قَدّمَ لَهـا صُـورةَ «مَدِينةِ العِلْـمِ العالَميّـة»، وقَدّمَ رِوايـةً لِحَديثٍ نَبَـويٍّ شَـرِيفٍ يُعْلِي مِن شَـأنِ هذه المَـدينةِ إِلَـى ذِرْوةِ العَلْيـاء. وأُثْبِتُ هذه الرّوايـةَ تَبَرُّكًا واعْتِـزازًا وتذكيـرًا لِأَحِبّائي مِن طَلَبـةِ العِلْمِ مِن العَـرَبِ والفُرْس. يقولُ ياقُـوتٌ: «وقد رُوِيَ عـن بُرَيْـدَةَ بـنِ الحُصَيب، أَحَـدِ أَصْحابِ النّبـيّ، صَلّى اللهُ عَلَيهِ وسَـلّمَ، أَنّـهُ قالَ: «قالَ لِـي رَسُـولُ اللهِ، صَلَّـى اللهُ عَلَيْـهِ وسَـلّمَ: يـا بُرَيْـدةُ، إِنّـهُ سَـيُبْعَثُ مِن بَعْـدِي بُعُـوثٌ، فَإِذا بُعِثْـتَ فَكُـنْ في بَعْثِ المَـشْرِقِ، ثُمّ كُنْ في بَعْثِ خُراسـانَ، ثُمّ كُنْ فـي بَعْثِ أَرْضٍ يُقالُ لَهـا «مَـرْوَ». إِذا أَتَيتَهـا فانـزِلْ مَدينتَهـا؛ فَإِنّهُ بَناهـا ذُو القَرْنَيْـنِ، وصَلّى فِيها عُزَيـرٌ. أَنْهارُها تَجْـرِي بِالبَرَكـةِ، عَلَـى كُلِّ نَقْبٍ مِنها مَلَكٌ شـاهِرٌ سَـيْفَه، يَدْفَعُ عن أَهْلِها السُّـوءَ إِلَى يَوْمِ القِيامـة». فَقَدِمَهـا بُرَيْدَةُ غازِيًا، وأَقـامَ بِها إِلَى أَن ماتَ، وقَبْرُه بِها إِلَـى الآنَ مَعْرُوفٌ، عَلَيْهِ رايـةٌ رَأَيْتُهـا» (ياقـوت الحمَـويّ، مُعْجَـمُ البلـدان، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ج٥، ص١١٣. ويُنْظَـرُ: مُسْـنَدُ أحمـد، رقـم ٢٢٤١٥، والمُـعْجَمُ الأَوسـطُ لِلطّبرانـيّ ٨٤٣٣). والحَمْـدُ للهِ رَبّ العالَمينَ.

## المَصادِرُ والمَراجِعُ

**- بالعَرَبيّة:**


١. الإصفهانـيّ، أبـو القاسـم الحسـين بـن محمد. (تـ٥٠٢هـ). محاضرات الأدبـاء ومحاورات الشـعراء والبلغـاء، شـركة دار الأرقـم بن أبـي الأرقـم - بيروت الطبعـة: الأولـى، ١٤٢٠هـ.

٢. ابـنُ خَلِّـكان، أحمـد بـنُ مُحمّد (تـ٦٨١هـ). (١٩٧٤م). وفَيَاتُ الأَعْيـان، بِتحقيق إحسـان عبّاس. بيـروت: دار الثّقافة.

٣. ابنُ طَيْفُور. (١٣٦٨هـ/١٩٤٩م) كتابُ بَغْداد، والأَصْلُ مأخُوذٌ عن مُصَوَّرٍ شَمْسـيٍّ لِلنُّسْـخةِ الخطّيّةِ الوحيدةِ المحفوظةِ في المُـتْحَفِ البريطانيّ بِلَندن.

٤. الجاحظ. البَيانُ والتّبيينُ، بِتحقيق عبدالسّلام مُحمَّد هارُون، ط٤، دار الفِكر، دِمَشق، (لا تا.).

٥. حـلاوي، ناصِـر. (١٩٦٩م). العَتّابـيُّ، حَياتُـه ومـا تبقّى مِن شِـعْرِه، العَـدَدُ ٢، ٣. مَجَلّـةُ المِرْبَد التي

كانَتْ تُصْدِرُها كلّيّةُ الآدابِ في جامعة البصرة.
٦. الحَمَوي، ياقوت (ت٦٢٦هـ). (لا تا.). مُعْجَمُ الأُدباء، بيروت: دار المُسْتَشْرِق.
٧. الحَمَوي، ياقوت (ت٦٢٦هـ). (١٣٩٧هـ-١٩٧٧م). مُعْجَمُ البُلْدان، بيروت: دار صادر.
٨. الرّافعي، أحمد فريد. (١٩٢٧م). عَصْرُ المأمون، ط٢. القاهرة: دار الكتب المصريّة.
٩. الزِّرِكْلِيّ، خير الدّين. (١٩٧٩م). الأَعلام، ط٤. بيروت: دار العِلْمِ لِلْمَلايين.
١٠. العاكوب، عيسى علي. (١٤٣٩هـ/٢٠١٨م). تأثيرُ الحِكَمِ الفارسيّةِ في الأدبِ العربيّ في العصرِ العبّاسيّ الأوّل. دمشق: دار نينَوى.
١١. العسكريُّ، الحسَنُ بنُ عَبْدِالله، أَبو هلال (ت٣٩٥هـ). (لا تا.). كِتابُ الصِّناعَتَيْنِ، بِتَحْقيق علي مُحمّد البِجاويّ ومُحمّد أبي الفضل إبراهيم. القاهرة: مكتبة عيسى البابيّ الحلبيّ.
١٢. القُرطُبيّ، يُوسُفُ بنُ عبدِالله النّمريّ (ت٤٦٣هـ). (لا تا.). بَهْجةُ المَجالِس وأُنْسُ المُجالِس، بِتَحْقيقِ مُحمّد مُرْسي الخُوليّ. القاهرة: الدّارُ المِصْريّةُ لِلتّأليف والتّرجمة.
١٣. كُرد علي، مُحمّد. (١٩٥٤م). رسائلُ البُلَغاء (اختيار وتَصْنيف)، ط٤. القاهرة: مطبعةُ لَجْنةِ التّأليفِ والتّرجمةِ والنّشر.

**- بالفارسيّة:**

١. أكبري، أمير. (١٣٨٤ هـ.ش). تاريخ حكومت طاهريّان از آغاز تا انجام. مشهد: بنياد پژوهشهای اسلامی، وطهران: سازمان مطالعه وتدوين كتب علوم انسانی دانشگاهها.
٢. محمّد مُعين. (١٣٧٨ هـ.ش). فرهنگ فارسی، جلد پنجم (أعلام)، تهران: مؤسسه انتشارات اميركبير.